هل يجوز التفكير في الأمور التي لا نعرف عنها شيئاً..؟ أم ينبغي علينا أن نتقبلها دونما جدل، أو أن نؤمن بها من دون التفكير فيها.

هل يجب علينا فقط أن نؤمن بوجود الله والعدل الإلهي والنظام الكوني الذي يسير كل موجود ومخلوق في هذا الكون..؟ أم أنه ينبغي علينا أن نفكر لنؤمن؟!

هل يجوز التفكير في الأمور التي لا نعرف عنها شيئاً؟

المسلمات بين الإيمان والفكر

لماذا التناقض أو الصراع أو عدم التوافق بين الإيمان والفكر؟

بقلم: جوزيف المجدلاني
محاضرات في الإيزوتيريك
Esoteric_lebanon@hotmail.com

بتعبير آخر، هل يجب أن يكون هناك مسلمات لا يحق لنا التفكير في كنهها والتعمق في ماهيتها..؟ أم أنه بإمكاننا التمعن في حقائقها لإدراك أبعاد معانيها، أو ما يمكننا أن نبلغه من تلك الأبعاد؟

سؤال منطقي راود أذهان العديد من البشر على مر العصور.. بل نكاد نجزم أن ما من إنسان لم يخطر في باله هذا السؤال في مرحلة ما من مراحل حياته، فهو سؤال ينم عن تواجد الطاقة الفكرية فيه..وعن صراعها مع ما يسمى بالمسلمات أو بالإيمان المسلم به، فلأن الإنسان يجهل كل وجود يختلف عما يحسه ويلمسه ويراه بواسطة الحواس، نجده يحيا في قلق دائم وعدم استقرار داخلي تجاه ذلك المجهول.. مما يعني أن عدم المعرفة يسبب له القلق، والمعرفة توفر له الراحة!

الإيمان بالمسلمات

لهذا الأمر، ولأن فكره الذي حده ضمن نطاق المادة والحواس غير قادر على التفكير في أمور غير منظورة... ولا يمكنه التأكد فكريا وذهنيا ومنطقيا من وجودها بواسطة المشاعر والمدارك، لجأ الإنسان إلى الإيمان بما يدعي بالمسلمات... وذلك كي يشعر بالراحة النفسية، تلك الراحة التي لم يستطع تفكيره وبحثه تأمينها له (هذا أحد التفاسير الأقرب إلى منطق الظاهر. لكن ثمة تفاسير أخرى ذات علاقة بحقيقة الباطن الإنساني وما تسجل فيه من معارف تعود إلى بداية الخلق).

وبما أن الإنسان لم يستطع أن يكتشف بنفسه سر وجوده وخلقه، لا بواسطة حواسه، ولا بواسطة مداركه العقلية أو الروحية في مرحلة تطوره الحالي، فقد لجأ إلى الإيمان بأن ثمة خالقا هو الذي أوجده ووهبه الحياة. نقول اضطر أن يؤمن... لأن لو ترك المرء العنان لفكره كي يبحث ويحلل، فلربما وجد نفسه يحيد عن درب الإيمان، أو يشكك في تلك الحقيقة، أو ينفي وجود العدل الإلهي، إن لم ينف الوجود الإلهي ككل!

ولأن ليس في مقدور الذهن البشري العادي فهم أسباب الآلام التي يتعرض لها المرء، كونه لا يستطيع استيعابها بواسطة حواسه الخمس ومداركه ومشاعره... نراه يلجأ إلى الإيمان بعدل إلهي يعم الكون وجميع الخلائق.

الفكر في حدود المادة

إذاً، الإيمان شعور يحتاج إليه المرء ليوفر له الطمأنينة والراحة ويحميه من الخوف من المجهول.. ما دام فكره عاجزاً عن إدراك الحقائق الروحية!

ويبرز السؤال: هل يحق للعقل أن يفكر ويتعمق في موضوع الإيمان؟!

يعتقد الكثيرون أن التفكير في الشؤون الإلهية إما مرفوض أو غير محبذ أو حرام أو ممنوع... إذ إنهم إما يخشون الخوض في مواضيع مجهولة، أو يظنون أن الفكر قادر على دحض الإيمان، فينتهي به الأمر إلى الفكر!

لا يستطيع الإنسان أن يكتشف بنفسه سر وجوده وخلقه، لا بواسطة حواسه، ولا بواسطة مداركه العقلية أو الروحية في مرحلة تطوره الحالي

لماذا هذا التناقض أو الصراع أو عدم التوافق بين الإيمان والفكر؟

لأن الفكر البشري محدود بوجه عام، ولأنه اعتاد التفكير ضمن الحدود المادية الضيقة، فهو ينظر إلى المادة والمحيط المادي ويفكر من خلال بعد المادة فقط. لذلك لا يمكنه أن يبصر غير المنظور.

مثلاً، حين يفكر المرء في سبب الأوجاع التي تنتابه، لا يستطيع أن يبصر غير الجسد والأعضاء، فلا يصل إلى الأبعاد اللامنظورة...! وحين يفكر في الآلام النفسية التي يتعرض لها، لا يبصر غير ما يحويه وعيه الظاهري، الذي يظهر له أن تفكيره سليم وتصرفاته منطقية.

من هذا المنطلق لا يلام أحد إذا ما استنتج أن لا سبب للألم ولا داعي للعذاب الذي يتعرض له... مما يعني له بالتالي أن ثمة ظلماً في الحياة... من دون أن يفطن إلى أن فكره المحدود لم يتمكن من الانطلاق خلف الحدود المادية وتفهم العدل الإلهي والنظام الدقيق الشامل الذي يحكم العالم ويسير الكائنات.

لهذا الأمر، وخوفاً من الارتطام بهذا الظلم، أو المجهول، يلجأ وعيه الباطني إلى إرساء شعور الإيمان في نفسه، كي ينقذه من الغرق في لجة الخوف والضياع واللاوعي... وهكذا يتمسك الإنسان بإيمانه بالمسلمات.

التفكير في المسلمات لا يفقدك الإيمان

وحتى لا يساء فهم المقصود، نود التوضيح أن علوم الايزوتيريك لا تناقض مفهوم الإيمان، بل على العكس. فالايزوتيريك يؤكد ويشدد على وجوب إيجاد الإيمان في النفس، قبل اتخاذ أية خطوة إلى الأمام، أو القيام بأي عمل. لكن ما نقصده هو السؤال التالي: «هل يحق للإنسان أن يفكر في الأمور التي يسلم بها، كي يتوسع في إدراكها ويتعمق في مفهومها... أم أنه يجب أن يدع تلك الأمور للإيمان فقط؟!».

إذا أجرينا تحليلاً دقيقاً للسؤال، وجدناه سؤالاً فلسفياً محضاً. والنظريات الفلسفية لا تنتمي إلى علوم الأيزوتيريك إن لم يتم تطبيقها عملياً. لذلك يرفض الايزوتيريك طريقة طرح النظريات الفلسفية أصلاً. فيأخذ الفكرة ويطرحها بأسلوب المنطق العلمي، المنطق العملي الحياتي الاختباري، فيقول: متى لا يمكننا أن نتخطى عتبة المسلمات بالفكر... ؟ ومتى نستطيع أن نخترق أبعاد الإيمان بالتحليل والمنطق؟

إن للإنسان حرية الاختيار في اتخاذ الموقف الذي يشاء، شرط أن يحسن اختياره. لأنه هو المسؤول عن اختياره وعن النتائج التي ستتأتي عن هذا الاختيار!

وأن يفكر المرء في المسلمات أمر غير ممنوع، لا بل أمر محبذ، شرط ألا يفقده التفكير منحى إيمانه، لأن الفكر ما وجد إلا لإيصال الباحث إلى الحقائق، فإن أدى به فكره إلى المجهول، وفي الوقت نفسه جرده من الإيمان بالمسلمات.. فهذا مرفوض أصلاً. لأن النتيجة ستكون شخصا ضائعا لا يستند إلى قاعدة فكرية ولا إيمانية.. وإنسان كهذا لا يرتقي في الحياة لأنه يفتقر إلى الدافع الذي يجعله يسعى إلى التطور، لا بل يفتقده لذة اختبار الحياة!

العقل

العقل طاقة وهبها الخالق للإنسان فقط، كي يتبصر

في أعماق كينونته، كي يستشف روحانيته وكي يدرك الطريق إلى خالقه لكن، أن يبعده تفكيره عن خالقه، وحتى عن إيمانه بخالقه، فذلك منتهى الضياع والفشل.

وان يحيد الإنسان عن إيمانه بعض الوقت، ريثما يغوص فكره في حقائق الأمور، أمر غير محبذ أيضا، لأن المرء، في حالات كهذه، قد يتوه عن درب الإيمان، ويضل طريق العودة إليه، كما أن أشخاصا عديدين قد يجهلون طريقة ربط نتائج التفكير التي سيتوصلون إليها، بالإيمان الذي كان لديهم.. فينتهون إلى مزيد من ضياع!

إذا، الوسيلة الفضلى هي أن ينطلق المفكر من قاعدة الإيمان نفسها، ويرتقي بالتفكير ويتوسع خارجها.

بعبارة أخرى، ليعتبر الإيمان كنقطة ارتكاز، ويحاول أن يتوسع منها نحو الأشمل بواسطة الفكر، بهذه الوسيلة العملية لن يضيع المرء عن حقيقة الإيمان. لأن الإيمان بات نقطة الارتكاز حتى وإن أخذه التفكير بعيدا، يبقى مشدودا إلى المحور، لأنه أساس انطلاقته.

انطلق من الإيمان وتحقق

المقصود أن يأخذ المرء موضوع الإيمان نفسه، كأن يتناول الإيمان بالعدل الإلهي مثلا ويفكر في كونه يؤمن به، لا بل في ضرورة الإيمان به، وفي الشعور الذي يغذيه في كيانه، والراحة التي يضفيها على نفسه، ثم ليبدأ بالتوسع، مفكرا في العدل الإلهي نفسه.. في طريقة تطبيقه بين البشر.. في حقيقته.. في مصداقيته.. في يقظته الدائمة.. في عدم إغفاله أية شاردة أو واردة.. في عدم تمييزه بين شخص وآخر، الخ.. وليتوسع في تشعبات تلك الفكرة بقدر ما يشاء.. حتى إذا شعر بحاجة إلى الابتعاد قليلا عن مركز دائرة تفكيره، بحيث يفترض عدم وجود العدل الإلهي، ليحاول أن يبحث عن النتائج التي قد تتأتى عن هذا الافتراض، إلى أن يبلغ مرامه في التفكير.

بهذه الوسيلة التفكيرية العملية، لن يخسر المرء إيمانه بالعدل الإلهي، لأنه انطلق من ركيزة ثابتة، هي قاعدة الإيمان نفسه.

لكن، أن يفكر المرء وفق القاعدة الفلسفية التي تستند إلى افتراض أولي (قد يكون صحيحا وقد لا يكون) في محاولة إما لتأكيده أو لنفيه، فذلك سيؤدي بتفكيره إلى متاهات لا يعرف كيف يخرج منها لأنه أحيانا كثيرة حين ينطلق المرء من قاعدة غير ثابتة، ويتأكد في نهاية الأمر أنها واهية.. يختلط عليه الأمر أو يفشل في تحديد القاعدة الصحيحة والثابتة. لأن الشك سيراوده في أن تكون جميع القواعد غير ثابتة.

المسلمات والبحث عن الحقيقة

إذا الإيمان بالمسلمات جوهر ضروري إلزامي، لكن لمرحلة معينة - أي ريثما ينطلق الفكر في مرحلة البحث عن الحقائق. لأن باستطاعة الفكر التوسع في موضوع المسلمات التي يؤمن بها المرء، فيوصله إلى أبعاد إيمانية جديدة لم يكن يعرفها قبلا، ويرسخ الإيمان في نفسه ليصبح ليس يقينا وحسب، بل حقيقة ملموسة بذلك يتحول الإيمان إلى واقع حي معاش عمليا.

يمكننا إتباع هذا النهج التفكيري في أمور حياتية عديدة، مع العلم أن الشك قد يقودنا إلى تشعبات سلبية بعيدة عن الواقع، لهذا الأمر، إذا رغب المرء في اكتشاف حقيقة شيء ما لا يعرفه، أكان حياتيا، شخصيا أو باطنيا.. لينطلق من قاعدة ثابتة، هي الإيمان بوجود تلك الحقيقة، ومنه ليتوسع بتفكيره خارجا ويتمدد بعيدا نحو الآفاق والأبعاد اللامنظورة فإذا ما أحس أن الشك قد بدأ يتغلب على إيمانه، أو أن تصوراته الفكرية بدأت بعده عن واقع الإيمان، ليعد إلى قاعدة الإيمان الراسخ (محور الدائرة) إلى أن يتمكن مرة أخرى من التوصل إلى الحقيقة. إذ إن الإيمان عادة أكثر صدقا مما تصوره لنا الأفكار ويزيفه الواقع.

من جهة أخرى، إن الثقة بالنفس في إنجاز عمل ما لهي أقوى بكثير من ضعف قد يوهمك به تفكيرك فإن أنت انطلقت من قاعدة إيمانك بمقدرتك الذاتية على إنجاز العمل، وقررت طريقة تنفيذه.. فالنتيجة ستكون نجاحا أكيدا ! وقس على ذلك سائر الأمور الحياتية والشؤون العملية

وليسدد الفهم خطواتنا للوصول إلى وعي الإيمان.

الإيمان شعور يحتاج إليه المرء ليوفر له الطمأنينة والراحة ويحميه من الخوف من المجهول.. ما دام فكره عاجزاً عن إدراك الحقائق الروحية!